القَوَاصِمُ الخَفِيَّة

(خواطرُ وشذرات للعاملين في المجال الخيري والأوقاف)

عبد الرحمن بن عبد العزيز الجريوي

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) الإمام القدوة:

عبدالرحمن بن عوف ﷺ وأرضاه

أما كونه الإمام: فقد صلى خلفه سيدنا مُحَمَّد ﷺ في غزوة تبوك ..

وتلك منقبة لا تعدلها منقبة ..

وأما قولنا القدوة: فلعلَّ في اقتداء رسول الله ﷺ بالصلاة خلفه يوم تبوك، وتكليف سيدنا عمر ﷺ له بإدارة أخطر نازلةٍ مرت بالأمة بعد وفاة رسولها ﷺ (اختيار الخليفة بعد عمر) ..

ولعلّ في هذا وذاكَ إشارةً وتوجيهاً لأفراد الأمةِ ومصْلِحِيها للاقتداء بهِ ﷺ.

الإمام القدوة: أحدُ العشرةِ المبشرينَ بالجنة، وأحد الثمانية الذين سبقوا بالإسلام، وأَحد الخمسة الذين أَسلموا على يد سيدنا أَبي بكر ﷺ، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين اختارهم عمر ﷺ ليختاروا الخليفة من بعده.

وهل فخرٌ أعظم من هذا الفخر ! وتالله لقد ذهب أهل المكرماتِ بمكارمهم.

كان ﷺ موسراً ثريًا كريمًا، تصدّق بشطر ماله على عهد النبي ﷺ، ثم تصدق بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمسمئة فرس في سبيل الله وخمسمئة راحلة، باع يومًا أرضا بأربعين ألف دينار ففرّقها كلها في سبيل الله، أعتق ثلاثين ألف رقبة ! حتى قيل: «كان أهل المدينة عيالاً على ابن عوف: ثلث يقرضهم ماله، وثلث يقضي دينهم، ويصل ثلثًا بماله»، وكان ينفق على أمهات المؤمنين بعد وفاة رسول الله ﷺ، فكانت عائشة وأم سلمة تقولان: «اللَّهُمَّ اسْقِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ مِنْ سَلْسَبِيلِ الْجَنَّةِ»، فقد أوصى لهنَّ بحديقةٍ بِيعَت بأربع مئة ألف دينار.

وعند وفاته أوصى بخمسين ألف دينار وبألف فرس في سبيل الله، وأَوصى لمن بقي من أهل بدر، لكل رجل أَربعمئة دينار، وكانوا مائة، فأَخذوها، وأَخذها سيدنا عثمان ﷺ فيمن أَخذ.

ومع هذا العطاء كله: قُسِّم ميراثه ﷺ من الذهب بالفؤوس حتى مجِلت (تقرحت) أيادي الرجال منه !

صلى رسول الله ﷺ وراء عبد الرحمن ﷺ صلاة الفجر في غزوة تبوك كما صوّر المغيرة بن شعبة ﷺ خبرها بقوله: خرجت مَعَ رسول الله ﷺ يوم تبوك لوضوئه، فلما قضى وَضوءَه أَقْبَلَ، فَأَقْبَلْتُ مَعَهُ، حَتَّى نَجِدُ النَّاسَ قَدْ قَدَّمُوا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ فَصَلَّى لَهُمْ، فَأَدْرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إحدى الركعتين فَصَلَّى مَعَ النَّاسِ الرَّكْعَةَ الآخِرَةَ، فَلَمَّا سَلَّمَ عَبْدُالرَّحْمَنِ، قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُتِمُّ صلاته، فَأَفْزَعَ ذَلِكَ الْمُسْلِمِينَ، فَأَكْثَرُوا التسبيح، فَلَمَّا قَضَى ﷺ صَلَاتَهُ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ ثُمَّ قَالَ: أَحْسَنْتُمْ، أَوَ قَالَ: قَدْ أَصَبْتُمْ يَغْبِطُهُمْ، أَنْ صَلَّوْا الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا.

ولله .. أيُ يومٍ عسيرٍ مرّ على أصحاب مُحَمَّد ﷺ ! أيُ لحظاتٍ قضوها وعاشوها وهم ينظرون إلى رسول الله ﷺ يُصلي بعدهم وقد سبقوه ! الله .. الله .. موقفٌ تقشعرُ له جلود المؤمنين .. وتفزع منه أفئدةُ الصادقين ..

لله أن ثبَّت سبحانه بفضله قلوبَهم فسحّت عيونهم وسبّحت ألسنتهم .. رضي الله عن أصحاب رسول الله وجمعنا بهم مع حبيبنا وحبيبهم ﷺ.

استخْلفَه عمرُ ﷺ على الحجّ في السنة التي استشهد فيها عمر، فحَجّ عبدالرحمن ﷺ بالنّاس، وحَجّ معه عمر، وهي آخرَ حجّةٍ حَجّها عمرُ سنة ثلاث وعشرين، وأذِنَ عمر تلك السنة لأزواج رسول الله ﷺ بالحجّ، فَحُمِلْنَ في الهوادج، وبَعَثَ معهنّ عثمانُ وعبدالرّحمنِ بنِ عوفٍ، فكان عثمانُ يسير على راحلته أمامهنّ فلا

يَدَعُ أحدًا يدنو منّهنّ، وعبد الرّحمن يسير من ورائهنّ على راحلته فلا يدعَ أحدًا يدنو منهنّ، وينزلنَ مع عمر كلّ منزل، وعثمان وعبدالرّحمن ينزلان بهنّ في الشّعاب فَيُقِيْلانهن في الشّعاب، وينزلان هما في أوّل الشّعب فلا يتركان أحدًا يمُرّ عليهنّ ..

ولله وفاء الأصحاب الأجلاء ﷺ لحبيبهم وإمامهم ﷺ.

ولما طُعِن عمر ودنت وفاته، أوصى بأن يكون الأمر شورى بعده في ستة ممن توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ: عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبدالرحمن، وأبى عمرُ تسمية أحدهم بنفسه، وأمر بحضور ابنه عبدالله مع أهل الشورى ليشير بالنصح دون أن يكون له من الأمر شيئًا، وقال لهم: «فإن رضي ثلاثةٌ رجلًا منهم، وثلاثةٌ رجلًا منهم، فحكموا عبدالله بن عمر، فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله فكونوا مع الذين فيهم ابن عوف».

ولله درُّ عمر أتعب أهل الإدارة بَعْده !

ثم إنَّ عمرَ ﷺ لم يتركهم هكذا، بل زَكّى لهم الإمام القدوة، فقال ﷺ: «ونعم ذو الرأي عبد الرحمن بن عوف، مسددٌ رشيد، له من الله حافظ، فاسمعوا منه».

ويموت عمر ﷺ بعد ثلاثة أيام من طعنه، ويدُفن يوم الأحد أول المحرم عام أربعٍ وعشرين بالحجرة النبوية إلى جوار صاحبيه .. ولله ما أعظم الصحبة وأجلَّ الجوار.

ولما دفن عمر ﷺ اجتمع أهل الشورى فقال لهم عبد الرحمن: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، فقال الزبير: جعلتُ أمري إلى علي، وقال طلحة: جعلتُ أمري إلى عثمان، وقال سعد: جعلتُ أمري إلى عبد الرحمن، فأصبح المرشحون ثلاثة: علي وعثمان وعبدالرحمن، فقال عبد الرحمن: أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه، والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه، فأسكت الشيخان، فقال عبدالرحمن بن عوف: أفتجعلونه إليَّ ؟ والله عليَّ ألَّا آلُ عن أفضلكم ؟ قالا: نعم.

فأخذ عبدالرحمن ﷺ يطوف بالمسلمين يستشيرهم، فلما كان بعد صلاة صبح يوم البيعة، أعلن عبدالرحمن البيعة لعثمان، فخطب فقال: «أما بعد: يا علي إني قد نظرت في أمر الناس فلم أراهم يعدلون بعثمان، فلا تجعلنَّ على نفسك سبيلاً»، ثم قال مخاطباً عثمان: «أبايعك على سنة الله ورسوله والخليفتين من بعده»، فبايعه عبدالرحمن وبايعه الناس المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون.

ولله ما أعظم موقفُ هذا الإمام القدوة ! وما أجلّه من موقفٍ حفظ اللهُ به الإسلام والمسلمين وعصم به دماءهم ! يقول الإمام الذهبي رحمه الله معلقًا على موقف عبدالرحمن ﷺ في الشورى: «ومن أفضل مناقب عبدالرحمن بن عوف عزله نفسه من الأمر وقت الشورى، واختياره للأمة من أشار به أهل الحل والعقد، فنهض في ذلك أتم نهوض على جمع الأمة على عثمان، ولو كان محابيًا فيها لأخذها لنفسه، أو لولاها ابن عمه وأقرب الجماعة إليه سعد بن أبي وقاص».

وأخيراً: – وهو مربط فرس – كان الإمامُ القدوةُ ﷺ زاهدًا في الإمارة، فقد أرسل سعد إلى عبدالرحمن رجلًا وهو قائم يخطب: «أن ارفع رأسك إلى أمر الناس (أي: ادع إلى نفسك)»، فقال عبد الرحمن: «ثكلتك أمك، إنه لن يلي هذا الأمر أحد بعد عمر إلا لامه الناس».

وكان عثمان ﷺ يريد أن يُوصي له بالخلافة من بعده، فلمَّا اشتكى عثمان رُعافًا، دعا كاتبه حمران فقال: اكتب لعبد الرحمن العهد من بعدي، فكتب له، وانطلق حمرانُ إلى عبدالرحمن فقال: البشرى ! قال: وما ذاك ؟ قال: إن عثمان قد كتب لك العهد من بعده، فقام عبدالرحمن فزعاً يدعو بين القبر والمنبر فكان أن قال: اللهم إن كان من تولية عثمان إياي هذا الأمر، فأمتني قبله. فلم يمكث إلا يسيراً حتى مات قبل استشهاد عثمان ﷺ وأرضاه.

(٢) القواصم الخفية

(والعصر إن الإنسان لفي خسرٍ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر).

وقد تُرجمتْ هذه السورةُ العظيمةُ هنا بشذراتٍ متفرقة ..

وخواطرُ ونفثاتُ محبٍ لأولي الفضل والإحسان ..

تذكيراً بخطرِ التشوف للرياسات (خصوصاً في أعمال الآخرة) ..

وبيانِ ضررِها على تمام الانقياد لله سبحانه وامتثال أمره ونهيه ..

وأثرِها على حياة القلب وذهاب نوره وطمس بصيرته ..

وخطرِها في محق بركة العمل وقلة التوفيق والتأثير والقبول والسداد ..

نِعْمَتِ المُرْضِعَةُ، وَبِئْسَتِ الفَاطِمَةُ:

والأصل في النهي عن التطلع للرياسات وتعلق القلب بها حديثُ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ ﷺ الذي رواه البخاري ومسلم، وفيه قوله ﷺ: قَالَ لِي رسول الله ﷺ: (يَا عَبْدَالرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لاَ تَسْأَلِ الإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا).

والمحققون من أهل العلم، الراسخون في الدين، العارفون بالله سبحانه، المعظمون أمره ونهيه: يعلمون أن حب الرياسة والتصدرَ لها داءٌ استفحل ضرره، واستفاض خطره، وكثر وقوعه، فابتليت به قلوب كثير من المسلمين، حتى عمّت به البلوى، فأظلمت قلوبٌ من أَثَرِه، فذهبت بصيرتها، وقد كانت مبصرة ! وخفّت عقول أهلها، فنطقت ألسنةُ أربابها بما لا يليق بمقامها، ولا يُعرف من سمت أصحابها، وقد كانت في سترٍ وعافية .. لكنها حجبُ التطلعِ .. وغشاواتُ حبِ التصدرِ التي أعمت وأصمّت، فدب الحسد والبغي ولا شكّ، وسادت الفُرقة والتباغض، حتى

وصل الأمر إلى فجورٍ في الخصومة، وتطاول الألسن، واتهامُ النيات، فاستوحشت النفوس، وتباعدت القلوب، وارتفعت راياتُ التناحر فأعقبه الفشل، ونَزْعُ بركةِ العمل، فغاب التوفيق والقبول والسداد، وقلّ النفع والتأثير، فقعد بسبب ذلك القاعدون عن العمل مع الله، وارتضوا لأنفسهم أعذاراً لا تصمد أن يعتذر بها جاهلٌ أمام مثله، فضلاً أن يعتذر بها عاقل عن العمل مع الله ! لكنها القواصم الخفية، التي دمدمت القلوب، وأرَّقت النفوس، وأهلُها يشعرون ولا يشعرون.

وقد أشار شيخ الإسلام رحمه الله إلى تأثير هذه القواصم الخفية وإلى فعلها بالنفوس، فقال رحمه الله: "القلب يجتذبه الشرف والرياسة، فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة، ويستعبده من يثني عليه ولو بالباطل، ويعادي من يذمه ولو بالحق".

تأمل تأمل: ترضيه الكلمة ! وتغضبه الكلمة ! ويستعبده من يثني عليه ولو بالباطل ! فيعادي ويوالي للشرف والرياسة !

وفي حديث عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ ﷺ نهيٌ واضحٌ صريحٌ أن يطلب المرء الإمارة أو الرياسة أو الإدارة، أياً كان مسماها وموقعها، وقد سمعت شيخنا الإمام ابن باز رحمه الله يقول معلقاً على حديث عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ ﷺ: النهي هنا عامٌ يشمل النهي عن طلب الإمارة وما في حكمها من الإدارات وغيرها.

وعندما سُأل رحمه الله: هل الإمارة – الواردة في الحديث – تشمل الإدارة ؟ فقال: حتى ولو على اثنين. فقيل له ياشيخ: إدارة المدارس ؟ قال: النهي عام، وإن سمّوها إدارةً، هي إمارة، وختم رحمه الله موعظته المؤثرة بقوله: الأصل في النهي – الوارد في الحديث – التحريم. انتهى كلامه رحمه الله.

والربانيون من أهل العلم بينوا حِكْمةَ التحذيرِ من ذلك: بأن الرياساتِ – لعظم شأنها، وخطرِ أثرِها، وكثرة ما يلابسها من فتن وشهوات – عرضةٌ لأن تحملَ طالبَها

على أن يقصر فيما وكل إليه من عمل، أو يقصر في القيام بما يجب عليه، أو يضعف عن حمل أمانتها.

وقد علّق الإمام القرطبي رحمه الله على هذا الحديث – في المفهم الذي شرح فيه صحيح الإمام مسلم – بكلام نفيس عندما قال: "قوله: (لاَ تَسْأَلِ الإِمَارَةَ): هو نهيٌ، وظاهره التحريم، وعلى هذا يدلّ قوله بعد هذا: (إنَّا والله لا نولي على هذا العمل أحدًا يسأله أو حرص عليه) ؛ وسببه: أن سؤالها والحرص عليها، مع العلم بكثرة آفاتها، وصعوبة التخلص منها؛ دليلٌ على أنه يطلبها لنفسه، ولأغراضه، ومَنْ كان هكذا، أوشك أن تغلب عليه نفسه، فيهلك، وهذا معنى قوله: (وكل إليها).

ومن أباها لعلمه بآفاتها، ولخوفه من التقصير في حقوقها، وفرَّ منها؛ ثم إن ابتلي بها: فَيُرْجَى له ألا تغلب عليه نفسه، للخوف الغالب عليه، فيتخلّص من آفاتها، وهذا معنى قوله: (أعين عليها)" انتهى كلامه رحمه الله.

وقد جاء التخويف من طلب الرياسات بصورة جليةٍ مؤثرةٍ في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ الذي رواه البخاري رحمه الله، أن رسول الله ﷺ قَالَ: (إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الإِمَارَةِ، وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ القِيَامَةِ، فَنِعْمَ المُرْضِعَةُ، وَبِئْسَتِ الفَاطِمَةُ).

ويا لله ! ما أعظم التصوير وأدقه وأبلغه: فَنِعْمَت المُرْضِعَةُ، وَبِئْسَتِ الفَاطِمَةُ !!

فتأمل كيف أن صاحبَها المتعلقَ بها صار كالرضيع الذي تغذيه أمه !! وبئست الفاطمة إن ذهبت، أو ذهب الإنسان عنها !!

وقد شابت رؤوس الصالحين ووجلت قلوب العارفين لقول رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث كعب بن مالك الأنصاري ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ، بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ».

وهذه النصوصُ الواردةُ في التحذيرِ من طلب الرياسة لا تُعارَض بحادثة طلب يوسف عليه السلام أن يولّى على خزائن مصر، كما في قوله تعالى:(قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)، لأن سؤال الإمارة والحرص عليها مذموم إذا وُجد من يقوم بها، بلا تقصير، أما إذا لم يوجد فإنها تكون واجبة على من يصلح لها، فلا حرج من طلبها في هذه الحالة، لأنها لو ذهبت لغيره، لترتب على ذلك الإخلال بمصالح الناس الدينية أو الدنيوية.

وإلى هذا المعنى أشار القرطبي رحمه الله في تفسيره بقوله: "يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية، لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح، وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم، فرأى أن ذلك فرض متعين عليه، فإنه لم يكن هناك غيره.

وهكذا الحكم اليوم، لو علم إنسانٌ من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة، ولم يكن هناك من يصلح، ولا يقوم مقامه؛ لتعين ذلك عليه، ووجب أن يتولاها، ويسأل ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقها به، من العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف عليه السلام، فأما لو كان هناك من يقوم بها، ويصلح لها، وعلم بذلك: فالأولى ألا يطلبها" انتهى رحمه الله.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وأما سؤال الولاية فقد ذمّه ﷺ، وأما سؤال يوسف وقوله: (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ) فلأنه كان طريقاً إلى أن يدعوهم إلى الله، ويعدل بين الناس، ويرفع عنهم الظلم، ويفعل من الخير ما لم يكونوا يفعلوه، مع أنهم لم يكونوا يعرفون حاله، وقد علم بتعبير الرؤيا ما يؤول إليه حال الناس. ففي هذه الأحوال ونحوها: ما يوجب الفرق بين مثل هذه الحال، وبين ما نهى عنه". انتهى رحمه الله. وقد سمعت الشيخ ابن باز رحمه الله يقول نحواً من قول شيخ الإسلام رحمهم الله جميعاً.

وسلف الأمة رحمهم الله كانوا يَحذرون هذه الآفة أشد الحذر، ويربون أنفسهم ومن حولهم على الاحتياط في هذا الباب الخطير، حتى أصبح هذا المعنى ظاهراً بيناً في حياتهم، يقول أبو نعيم رحمه الله: "والله ما هلك مَنْ هلك إلا بحبِّ الرياسة"، وقد كانوا – رحمهم الله – أهل بصيرة بشأنها وثقلها، **يقول إسماعيل بن علية رحمه الله لورّاقِه: "ويحك، إن للرئاسة مؤونة ثقيلة"**، وسفيان الثوري رحمه الله يلفت الانتباه إلى خطورة تشبث القلوب وتعلقها بها فيقول: "ما رأيت زهداً في شيء أقل منه في الرياسة، ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب فإن نوزع الرياسة تحامى عليها وعادى"، ويقول يوسف بن أسباط رحمه الله: "الزهد في الرياسة أشد من الزهد في الدنيا"، وكانوا – رحمهم الله – يدركون خفاء أمرها ودقته، ويُحذرون من ذلك، وقد كتب سفيان الثوري رحمه الله إلى صاحبه رسالة جاء فيها: "إياك وحب الرياسة، فإن الرجل تكون الرياسة أحب إليه من الذهب والفضة وهو باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء السماسرة، فتفقَّد نفسك". وصدق سفيان رحمه الله وأحسن عندما صوّر خفاء حبها في القلب وتشبث النفس بها والمرء يعلم أولا يعلم ! وقد قرر شيخ الإسلام رحمه الله هذا المعنى بقوله: "فهي خفية، تخفى عن الناس، وكثيرا ما تخفى على صاحبها"، ولما قيل لأبي داود السجستاني: "ما الشهوة الخفية ؟ قال: حب الرياسة".

وهاهنا ثمتَ ملمحٌ خطيرٌ ودقيقٌ ومهمٌ، يبينُ شناعة عواقب هذه القواصمُ الخفية، بيّنه الفضيل بن عياض رحمه الله بقوله: "ما أحب أحد الرياسة إلا حَسَد وبغى، وتتبع عيوب الناس، وكره أن يُذكر أحد بخير".

والموفق المسدد يُدرك خطورة ما قاله الفضيل رحمه الله وكونه أمراً واقعاً ملموساً يعتري قلوب المؤمنين حال ضعفها وتلبسها بهذه الآفة وتعلقها بها.

وقد حرر ابن الجوزي رحمه الله كلاماً نفيساً من دقائق خطرات القلوب في هذا الباب فقال: "وقد يكون الواعظ صادقا قاصدا للنصيحة، لكنه شرب حبّ الرياسة في قلبه مع الزمان، فيحب أن يُعظَّم، وعلامته: أنه إذا ظهر واعظ ينوب عنه أو يعينه على الخلق كره ذلك، ولو صحَّ قصده لم يكره أن يعينه على خلائق الخلق".

وقال أيضاً رحمه الله: "ومنهم من يفرح بكثرة الأتباع، ويلبِّس عليه إبليس بأن هذا الفرح لكثرة طلاب العلم، وإنما مراده كثرة الأصحاب".

إنها مواطن الفتنة.. ومداحضُ البلاء .. ومزالق الهلاك .. وإن رُفِعتْ عليها راياتُ الهدى أو قيل إنها قواربُ للنجاة !!

وتأمل كيف كان سلف الأمة رحمهم الله يُبالغون في الاهتمام والعناية بهذه المعاني القلبية العظيمة .. عن عبدالرحمن بن مهدي رحمه الله قال: كنتُ أجلس يوم الجمعة فإذا كثر الناس فرحت، وإذا قلوا حزنت، فسألت بشر بن منصور فقال: هذا مجلس سوء فلا تعُد إليه. قال: فما عدتُ إليه.

ولله كم من مجلسٍ ومجلسٍ حقيقةٌ بمراجعةٍ ونظرٍ وتأمل !

ولله در سيدنا سعد بن أبي وقاص ﷺ عندما امتطى صهوة الفِعال والمقال، فرمى بحابل القلوبِ نابَلها !! فأغنى بفعله عن الخطب والشعارات والرايات، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص قال: كان سعد في إبلٍ له وغنم فأتاه ابنه عمر بن سعد، فلما رآه قال سعد: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فلما أتاه قال: يا أبتِ أرضيتَ أن تكون أعرابيا في غنمك والناس يتنازعون في الملك في المدينة ؟! فضرب سعدٌ صدر عمر وقال: اسكت فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي».

ولله: ما أحوج الصدور لضربة كضربة سعد بين فينة وأخرى.

(٣) وما ضَرَّهُم أنْ لا يَعْرِفَهُمْ عُمَرْ !

من خاض غمار العمل مع الله بصدقٍ وتجردٍ ولم تتطلع نفسه لعوارض الطريق وصوارفه، حُفظ برحمةِ الله من هذه القواصم وغيرِها، فيصبحُ ويمسي وشعاره ودثاره: (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت)، يستحضر هذا في كلِ فِكرةٍ وعند كل خطرة، ذلك أن من صحت نيتُه لم يضره أن يكون آمراً أو مأموراً ..

وسيدنا عمرُ ﷺ يقرر هذه القاعدة الجليلة في خبر خواتيم معركة النهروان، عندما سأل رسول قائد المعركة عن قتلى المسلمين، فيقول له الرسول: قُتِلَ فلانٌ وفلانٌ وفلان .. وأناس لا يعرفهم أمير المؤمنين ! فتدمعُ عينُ الفاروقِ عمر ﷺ وهو يقول: وما يضرهم أن لا يعرفهم عمر ! إن كان ربُ عمرَ قد عرفهم !!

أي عظمةٍ تجلت في هؤلاء الرجال الأفذاذ ! وأي صدقٍ حملهم على التجرد من حظوظ أنفسهم ومجافاةِ عن ذواتهم !

وهكذا كان الجيل المبارك من أصحاب سيدنا محمدٍ ﷺ: أبر الناسِ وأصدقهم لهجةً وسريرة، عرفوا كيف يعيشون ويقودون أنفسهم ويأخذون بخطامها أحسن مأخذٍ، حتى في مثل هذه القواصم المهلكة ! فقد خَرَجَ الشيخان رضي الله عنهما مع سادات المهاجرين مدداً لسيدنا عمرو بن العاص ﷺ في ذات السلاسل، وعمرو ﷺ إنما أسلم بعد السنة السابعة من الهجرة.

والمتأملُ في أمرِ سيدنا أبي سفيان ﷺ وكيف قضى أواخر حياته، واستحضر مع ذلك كيف كان ﷺ في مبتدأ أمره، فهو سيد أهلِ الوادي (مكة وما حولها)، بل سيد العرب كلها في زمانه، لكنه لما أسلم وتغلغل الإيمانُ في قلبه وذاق طعم الصدق مع الله، عاش بقية حياته عيشةً هادئة هنيئة جميلة ! لم يسع لمنصبٍ أو جاه، وهو هو عقلاً وحكمةً ومكانةً وشرفاً، وكانت تعقد الولايات لمن هم دونه عقلاً وسناً

وهو معهم ! لم تتشوف نفسه لما عهدته في سالف عهدها وقارعته في أول أمرها، فلله درهُ عرف كيف يعيش.

وعَزَلَ عمرُ خالداً رضي الله عنهما عن قيادة جيوش الشام بعد وفاة أبي بكر رضي الله، وولى أبا عبيدة، فما تردد خالد أن يكون تابعاً مأموراً بعد أن أميراً مطاعاً.

فلله كم في هذا الجيل العظيم من قدوة ! ولله كم للأمة اليوم فيه من أسوة !

وبعد: فإن الموفقَ الكيّسَ اللبيبَ الفطن إذا تجرد من حظوظ نفسه، وجعل ميزان التقوى الحاكم له اختياراً وتركاً لنفسه أو لغيره، واستحضر معنى الصدق والأمانة، وأدرك أن أمانة الكلمة والرأي والاختيار أعظم من أمانة المال، وتيقَّن أن المعتبر في الترك والاختيار والتَرشُحِ والترشيحِ إنما يكون النظر فيه إلى الأمانة والقوة مجتمعتين: (إن خير من استأجرت القوي الأمين) ليس ثَمَّتَ شيءٌ غيرها .. إذا استحضر هذا كله: لم يعرف مجاملةً ولا مداهنةً ولا بيعَ ذمة مع نفسه، فضلاً أن يعرفها مع غيره.

وتلك لعمر الله نعمةٌ ومنةٌ وتوفيقٌ وحكمة: (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) ، (وما يلقّاها إلا الذين صبروا وما يلقّاها إلا ذو حظٍ عظيم).

ومن كان يعلم هذا الخطر العظيم، ثم هو مع ذلك يحرص على الرياسة ويتصدرُ لها ويطلبها؛ فهو إنما نظر – في غالب أمره – إلى مغانمها ووجاهاتها وسمعتها وثناء الناس وقيلهم، وغير ذلك مما يختلف ويتنوع بحسب كل شخص وبيئته وتطلعاته وما يتشوف إليه.

وقد يُزيّنُ البعضُ لنفسه أنه إنما نظر إلى المصلحة وأنه يقصد الخير ويطلب الأجر ! ومثل هذا الذي يطلب الرياسة ونحوها، وهو يعلم أن في هذا المكانِ أو الثغرِ من هو مثله أو أفضل منه أو من هو مؤهلٌ للقيام بها .. مثل هذا يجب أن يراجع أمره فلا يتولى ما تعلقت به نفسُه، ولا يُوَلَّى الأمر الذي طلب، كما قرّر ذلك المحققون

من أهل العلم، استناداً إلى قوله ﷺ لمن طلبها: (إنا لَنْ – أَوْ لاَ – نَسْتَعْمِلُ عَلَى عَمَلِنَا مَنْ أَرَادَهُ) رواه البخاري ومسلم.

ويعظم الأمر وتشتد خطورة طلب الرئاسات: إذا كان طلب الرياسة والإدارة ونحوه في أمرٍ من أمور الآخرة .. من مثل الرئاسات في العمل الخيري والجمعيات والمؤسسات والمجالس التي تهتم بخدمة المسلمين ومجتمعاتهم وأبنائهم وفقرائهم وأيتامهم، ونحو ذلك مما هو معلوم ومنتشر في بلادنا المباركة وبلاد المسلمين ..

وهي آفةٌ عظيمةٌ ضربت بأطنابها في قلوب بعض الصالحين، ففعلت فيها الأفاعيل وهم يعلمون أو لا يعلمون ..

وقد دوّن بعض الموفقين كلاماً جميلاً قال فيه: أن فيما ذُكر من كلام الصوفية الذي صدقته الأيام والتجارب: (أن آخر ما يخرج من قلوب الصالحين ورؤوس الصديقين حب الجاه والرياسة)، وقد يُرى أحدهم يخفض صوته، ويتخشع في مشيته، ويزهد في لباسه وطعامه، فإذا نوزع رئاسته طاش عقله ونسي ما كان من أمره. انتهى.

وأخيراً: فإن هذه البلية إنما هي في حقيقتها: علامةُ اختبارُ الصدقِ وصلاحِ القلب، وانقياده لأمر الله، وبُعْده عن اللهث خلف مرادات الذات، والسقوط في مزالق الهوى وحظوظ النفس.

والله من وراء القصد وهو المؤمل أن يصلح النوايا ويجمع القلوب على مرضاته، وأن يبارك في القول والعمل.

والحمد لله أولاً وآخراً.

وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّد وآله وصحبه أجمعين.

عصر الجمعة ١٦ ذو القعدة ١٤٤٥

مكة المكرمة حرسها الله